تبادلية العلاقة بين الناقد والمبدع

بقلم : ممدوح القديري*

على الرغم من ضعف الحركة النقدية نسبيا في الساحة الأدبية وعدم مجاراتها النتاج الإبداعي المنشور إلا أن وجودها له تأثيره المتباين في إلقاء بعض الضوء على المشهد الإبداعي فوق المسرح الأدبي العربي .

ولا بد من الاعتراف منذ البداية بأن هناك فرقا أو مسافة بين ما يكتب من إبداع وبين ما يكتب عنه من نقد، لأن الناقد مهما حاول التفسير لا يستطيع أن يعطي صورة كاملة عما كان يعتمل في نفس الأديب، ولهذا تخرج من النقد مستويات متباينة من التفسيرات، قد تقترب كثيرا من مضمون العمل الإبداعي وما يحتويه من أفكار أو تبتعد بعض الشيء عن ذلك، وبما أن النقد كما يقول د . أحمد ضيف ليس عملا وإنما هو فن يضبطه العلم ». فبناء على ذلك فإن النقد الموضوعي للعمل الإبداعي أمر بالغ الصعوبة . ويرجع ذلك إلى أن العقل اللاواعي هو الينبوع الذي يزودنا بكل الأفكار والحلول حين نكتب عن الإبداع كمتلقين غير معروفين عند المبدع، إلا أن ذلك المتلقي موجود خارج وعيه في لحظة الإبداع عميقا في وجدانه لمعرفة التأثير المباشر الذي أحدثه نتاجه الأدبي والفني، لكن ذلك لا يتأتى بالسرعة المطلوبة، فقد يكون المتلقي أكثر معرفة وصاحب عبقرية تفوق ما لدى المبدع ، فيستخرج من عمله صورة أكثر إشراقا مما في عقله (أقصد المؤلف) .

وهنا تبرز مسألة الذاتية في النقد التي تتيح للناقد قدرا من التأثير المشروع والاستجابة المعترف بها، وهي ثمرة التفاعل بين الأعمال والأذواق . ولكن لا بد للناقد المتلقي من قدر من الموضوعية التي تتيح له مقاييس ومعايير يحتكم إليها في التمييز بين المنتوج الأدبي والمفاضلة بين الأساليب التي يستخلصها من طبيعة الفن الإبداعي، حتى لو كان متعدد الأصوات، ثم يتبع ذلك عملية التنظير أي استنباط بعض القواعد والقوانين من العمل التي يرجع إليها فيما بعد لتقويم النصوص، وتقدير قيمتها الفنية، والناقد يعتبر قاضيا يتوج تفسيره للنص بالحكم عليه بالجودة أو الرداءة، بالحسن أو القبح، إلا أنه لا يصح للناقد أن يفرض بعض ما يعتقده دون التوصل إلى درجة من الموضوعية النسبية بلا انحياز أو تعصب لتأكيد ذاتيته رفضا أو قبولا للعمل الإبداعي، فقد يأتي هذا النقد انطباعيا مليئا بالمدح والثناء دون مبرر، أو يأتي قدحا دون تسويغ معقول وقد يغضب بعض المبدعين من النقد عندما يظهر نادرا على صفحات المجلات والصحف، أو حتى بين دفتي كتاب يطول انتظاره، وذلك لأن آذانهم وعيونهم قد تعودت على الإطراء والمدح .

ومن ناحية أخرى قد يأتي النقد بلا إبداع بمعنى أن يكون مدرسيا، جافا، عاما خاليا من التذوق الفني المطلوب الذي يثير في النفس الرضا ويشبع الظمأ إلى التذوق المتقن الجاد . وليس معنى ذلك خلو المجال النقدي من الرؤية الحاذقة المليئة بالتذوق الإبداعي التي تعطي الأديب حقه في فنه وليس في شخصه أو لعلاقته مع غيره .

وتأسيسا على ما سبق أستطيع القول بأن هناك علاقة حوارية تبادلية بين الناقد والمبدع قد تكون مباشرة أو غير مباشرة تتعلق بالنتاج الأدبي في محاولة لفهمه والوقوف على كنهه مع تعدد مستويات التفسير، وهي ظاهرة صحية في النقد ومناهجه المختلفة، وهذا يدفعني إلى ذكر ما قاله وامان سيلدن " في كتابه " النظرية الأدبية المعاصرة » ترجمة د . جابر عصفور عن دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٠ م، ص١٦٠ : « أن الأديب المتأخر في الزمن لا بد له من الدخول في معركة نفسية، لخلق مساحة تخيلية تمكنه من الكتابة اللاحقة وتتضمن تلك المعركة قراءة للأدباء القدامى من أجل تفسير جديد ».

---

* كاتب فلسطيني مقيم في السعودية.